الخليفةُ العظيم

قد يشعر القارئ بشيء من خيبة الأمل، حين يرى أننا قد بلغنا هـذا القدر من الكتاب ولم نسـرد لـه إلا قليلا من أعمـال البطولة وأحاديـث الحروب، وأننا بدل أن نقص عليه سـير الأبطال، طغى بنـا القلم إلى الإسـهاب فى اضطراب حـركات الأجناس، وثورات الأديـان. نعم إننا بدأنا بداءة تسـتثير العاطفـة وتحبس الأنفاس بذكـر طارق وجنـده من البربر الذين لم تكـن فتوحهم اللامعة من أسـاطير الخيال، ولم تكن فى صحـة حوادثها أقل من تاريخ القرن التاسـع عشـر، وقفينا على ذلـك بذكر الموقعة الكـبرى الفاصلة، موقعة طلوشـة (تولـوز) وهى حقًّا من الوقائـع المؤثرة وإن أعوزها كثير من الإسهاب التاريخى. ثم ألمنا بموقعة العرب مع الإفرنج، وبمعركة رونسيسـفال التى أبعد وصفها فى الخيال، وغشاها غمام مـن خطرات الأوهام، ومر على هـذه المعركة مائة عام، فوصلنا إلى مقتل يولوجيوس، وإلى خمود حركة الاستشهاد الدينية.

ولم نكـن فى غضون هذا القرن نقرأ فى تاريخ الأندلس إلاصراعًا عنيفًا بين العشـائر والمذاهب الدينية المختلفة التى تمثل الشـعب الإسبانى، ومهما يكن من شـىء، فإن أعمال البطولة نادرة دائمًا، وكثيرًا ما تكون من خلق الشعراء، فإن عقولهم الروحانية كثيرًا ما

تلبس بعض حوادث الحرب العادية أثوابًا من البطولة لا تدركها الأفهام، فى حين أن الصراع بين قبيل وآخر أو مذهب وآخر هو كل ما شهدته الدنيا منذ وجد الإنسان، فمن الحق إذًا ألا ننساق مع أنفسنا فى اعتقاد أن تاريخ الحركات العظيمة خالٍ من الروعة لأنه خال مما يسحر النفس من أعمال البطولة الفردية، فقد كان لكثير من المغمورين من الرجال والنساء فى غضون عصر الاستشهاد الدينى إخلاص وجهاد وبطولة تفوق أعمال الفرسان فى ساحة القتال، لأنه من السهل أن تكون شجاعًا فى معركة تغلى فيها الدماء، أما أن تبصر نذر الهلاك وتحتمل السجن الطويل المدى، وتنتظر بشجاعة وجلد يوم الإعدام وأنت ثابت القلب رابط الجنان - فشىء فوق طاقة كثير من الناس.

أخطأ شهداء المسيحيين فى رأيهم جادة الصواب، وقذفوا بأرواحهم فى غير مقذف، ولكن شجاعتهم مع هذا كانت جديرة بالإعجاب، كما كانت عقولهم جديرة بالرحمة.

كانت فلورا بطلة حقًّا، كما لو ضحت بحياتها فى سبيل حقيق بالتضحية، وخلق يولوجيوس من طينة الأبطال على الرغم من تعصبه وتزمته، وكم فى كل هذه الثورات السياسية والدينية التى مرت بنا من أعمال تجلى فيها الإخلاص والثبات والعزم والاحتمال، وهذه - وإن فرت من عين المؤرخ - لا تقل عن أعمال البطولة اللامعة فى ميادين القتال.

إن أشـق واجبات الإنسـان لا يظهر غالبًا إلا فى صغار حوادث البطولـة، وإن فى المعارك والتحام الجيـوش فـرصًا لا تعد لتكوين الأبطال.

ويسهل جدًّا أن ترى البطولة واضحة فى شخص من أن تراها فى شعب أو مدينة، وها نحن أولاء بصدد حياة رجل يعد بين قليل ممن قربوا من المثل الأعلى فى عظمة الملك وقوة السلطان.

إن الملك العظيم أثر الحاجة الملحة والخطب العظيم، فإذا اشتدت آلام الأمة وطال بأسـها، وازدحمت أيامها بالكوارث، ورف غراب الدمـار بجناحيه فى الأفق - جـاء الملك العظيم لينقذ قومه من بين براثن الخطـر، وليعيد إليهم الرفاهية والهـدوء والأمن، وليحكم مملكة كتب لها أن تنهض بهمته ومسـاعيه إلى القوة والسعادة بعد الضعـف والانتكاس، وقد كانـت الحاجة بالأندلـس إلى مثل هذا الملك شديدة فى طليعة القرن العاشر، فقد تلت ثورة المسيحية التى اشـتعلت بقرطبة ثورات، وانتشـر العصيان فى ولايات الأندلس، وتنـاوب عرش المملكة أمـراء لا خير فيهم، ولا غنـاء عندهم[1]، وقضـى على السياسـة النشـيطة العاملة التى قام بهـا المنذر الذى خلف أباه فى سنة ٨٨٦ م / ٢٧٣ هـ بقتله فى سنة ٨٨٨ م / ٢٧٥ هـ

(١) مات عبد الرحمن الأوسـط سـنة ٢٣٨ هـ وخلفه ابنه محمد وكان له غزوات موفقة فى شمال إسبانيا، ثم مات فى سنة ٢٧٣ هـ وخلفه ابنه المنذر ولم تطل مدته، إذ أقام بالملك نحو سنتين ومات سنة ٢٧٥ هـ وولى بعده أخوه عبد الله بن محمد.

وجـاء بعـده أخوه عبد الله الـذى دبر مقتله، فـكان أضعف من أن يقف على قدميه فى وجه الخطر الذى كاد يذهب بملكه، لأنه كان متقلبًا مضطربًا، وكان يناوب بين الشـدة والاستخذاء فلم ينجح فى كليهما، وكان حقيرًا قاسـيًا شـريرًا، فأجمع الناس لأول مرة على كراهيتـه ونبذ طاعته، ولم تمض ثلاث سـنوات من حكمه، حتى كان القسم الأعظم من الأندلس مستقلا فإن الأحزاب المختلفة التقت علـى معارضته، واهتبل كل نبيـل أو زعيم من العرب أو البربر أو الإسـبان فرصة ضعفه وسـوء حكمه، وما أصبحت فيه الأندلس من الفوضىالطخياء الشـاملة – فاختص نفسه بقسـم من المملكة، وقام يتحدى الأمير من وراء حصونه.

وكان عظماء العرب من أبناء الفاتحين قليلى العدد، فلم يمنعهم ضعفهـم، ولم تقعد بهم قلتهم عن أن يقلبـوا للأمير ظهر المجن، فاسـتولوا على بعض إمارات منها إشـبيلية التى أصبحت منـافسًا مخيفا لقرطبة، أما فى المدائن الأخرى وحيث كان العرب أضعف من أن يقاوموا الأمير، فإنهم خضعوا له خضوعًا صوريًّا، واستقل حاكما لورقة وسرقسـطة استقلالا حقيقيًّا، ولم يبق للأمير من يستنصر به إلا الجنـود المرتزقة الذين أخضعوا له أهل قرطبة إخضاعًا ظاهريًّا، بحيث إذا جـاوز المرء قرطبة لم يجد عربيًّـا واحدًا يرجى منه أن ينصرالأمير أو يدافع عن الدولة الأموية.

وكان البربر أكثر عددًا من العرب، وأشبه بهم فى السخط والعصيان، فخلعوا ربقة الطاعة للأمير، وعادوا إلى نظام القبائل، واستقلوا بالولايات الغربية مثل: استرامادور، وجنوب البرتغال، واحتلوا مراكز عظيمة الشأن فى الأندلس نفسها كمدينة جيان، وكانت أسرة ذى النون البربرية تتألف من أبيهم موسى وهو شرير كبير ولص بغيض، ثم من أولاده الثلاثة الذين أشبهوه فى قوته وقسوته[1] فدهمت هذه الأسرة الأندلس كلها بالسيف والنار، وعاثت بالفساد فى جميع نواحيها تحرق وتنهب وتقتل أينما سارت.

وكان الإسبان المتسلمون الذين صقلتهم مدنية العرب بعض الصقل، أقل وحشية من البربر وإن لم يقلوا عنهم فى بغض الحكومة، فاستولوا على ولاية الجرف فى الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة، وملكوا عددًا عديدًا من المدن والولايات المستقلة بالأندلس، وفى الحق إن معظم المدن العظيمة كانت فى ثورة مقنعة أو سافرة، فقد اتحد حكام العرب وزعماء البربر والإسبان المتسلمين على معارضة الأمير والاستهانة بأمره، وكان ابن حفصون أكثر هؤلاء قوة وأشد مراسًا، وهو مسيحى[2] أثار سكان الجبال بغرناطة، وأقام فى حصانة معقله ببشتر «بوباستور» يحكم ويشرع للبلاد حوله،

---

(١) هم يحيى وفتح ومطارف.

(٢) يقال إنه كان مسلمًا وارتد إلى المسيحية حوالى سنة ٩٠٠ م وسمى نفسه صمويل.

وطالما جرد الأمير عليه جيوشًا فآبت بالخذلان والهزيمة، ثم التجأ الأمير آخر الأمر إلى مصالحته وملاينته، ولكن ابن حفصون كان فى هذه الناحية أوسع منه حيلة وأشد مكرًا[1]، وكانت مرسية مستقلة يحكمها أمير متسلم، حكمًا رفيقًا حازمًا، فأحبته رعيته، ولم يغفل مع ولوعه بالشعر والأدب عن تحصين مملكته بجيش عظيم، عِدته خمسة آلاف فارس، وكانت طليطلة كعادتها ثائرة صاخبة، ولم يعق نصارى الشمال عن الاستيلاء عليها واسترداد ملكهم المسلوب إلا ما شجر بينهم من خلاف وانقسام.

هكذا كانت حال الأندلس، وهذا ما آل إليه أمرها، فقد أصبحت ممزقة الأشلاء، منبتة الأواصر، تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التى صارت أشبه بالضياع منها بالولايات التى تكون دولة قوية، وصارت أعجز من أن تقف فى وجه فاتح قوى عزوم.

وكانت تلتمع أحيانًا أشعة من النور فى ظلام هذه الفوضى القاتمة، فقد ذكرنا آنفًا: أن حاكم مرسية كان أديبًا مثقفًا كما كان يشتهر حاكم قسطلونة بإغداقه على الشعراء ورجال الفنون، وكان يعيش فى قصر فوق أعمدة من الرخام، غطيت حيطانه بزخارف من المرمر والذهب، واشتمل على كل ما تشتهى النفس من النعيم.

---

(١) فى أخبار مجموعة: وهلكت الجبايات باشتداد شوكة الثوار بكل ناحية، وانبسطت خيل ابن حفصون على مرحلة من قرطبة دون أن يدفعها دافع، وبلغ الأمر أن تقدم فارس فاقتحم قنطرة قرطبة ودفع رمحه فأصاب الصورة التى على القنطرة، وتمادى هذا البلاء خمسًا وعشرين سنة.

أمـا ابن حجاج حاكم إشـبيلية فإنه اضطر الأمـير إلى مصالحته ومصادقتـه وحمل أعباء الحكم كريمًا نبيـلا، وأخذ رعيته بالرفق، فرفرف فوقهـا علم السـلام والطمأنينة، وعاقـب المجرمين بعدل وصرامة، وأقام مراسم الملك فى جلال وعظمة، وبلغ حرسه خمسمائة فارس، وكان رداؤه الملكى من الحرير المنسوج بخيوط الذهب والفضة، كتب عليه اسمه وألقابه بالذهب الخالص، وذاعت شـهرته فراسله الملوك مـن وراء البحر وبعثوا إليه بهداياهـم، وتوافد عليه العلماء والفقهاء من المدينة المنورة، وازدان قصره بأشـهر المغنين من بغداد، وكانـت جاريته «قمـر» البغدادية شـاعرة رائعة الحسـن، بديعة الصوت، فصيحة اللسان، مرهفة الحس، وهى التى تقول فيه:

ما فى المغارب من كريم يرتجى إلا حليـف الجـود إبـراهيـم
أنى حللت لـديـه منـزل نعمـة كـل المنـازل مـا عـداه ذميـم

وقد اجتذب إلى قصره الشـعراء، فأمه جميعهم، حتى شـعراء قرطبة الذين وثقوا من كرمه وتكريمه، وأعرض مرة عن شاعر وأنبه لأنه أراد أن يسـره بهجاء منافسيه من أشـراف قرطبة، وكان من قوله له: لقد كذبتك نفسـك يا هـذا إن ظننت أن رجلا مثلى يهش لسماع هذا الهجاء الدنىء.

ولكن كل هذه الأشـعة اللامعة من الحيـاة الأدبية والثقافية لم تخفـف إلا قليلا من اضطـراب الفوضى العامة التـى شملت ربوع

الأندلس وصيرتها فريسة للكوارث التى منها ضعف حكومة قرطبة، وخروج كثير من حكام الأقاليم عن الطاعة، وانتشار عصابات اللصوص وقطاع الطرق بالبلاد، حتى صارت المملكة إلى حال تستنزف الدمع من الشئون، وأصبحت قرطبة نفسها - وقد توالت عليها غارات ابن حفصون ورجال عصائبه - فى حزن مقعد مقيم، وكانت - وإن لم تحاصر بالفعل - تقاسى ما هو شر من الغزو وأشد من الحصار. ويقول مؤرخو العرب:

«كانت حال قرطبة تشبه حال ثغر تعرض لهجمات الأعداء، فكثيرًا ما فزع سكانها من نومهم فى جوف الليل لصياح الزراع على شاطئ النهر وقد وثب عليهم لصوص الطرق يغمدون سيوفهم فى رقابهم».

وكتب بعض من حضر هذا العهد يقول: «لقد أصيبت المملكة بانحلال شامل، فقد تلت المصائب المصائب فهى لا تنقطع، واستمر النهب والسرقات، وجرت زوجاتنا وأولادنا قسرًا إلى الأسر والعبودية».

وعمَّت الشكاية من تهاون الأمير وضعفه وضعته، وتذمر الجنود لمنع أعطياتهم، وضنت الولايات بإرسال حاصلاتها، وخلت خزائن الدولة من المال فأصبحت قفرًا يبابًا، وكل ما استطاع الأمير أن يقترضه من المال رشا به بعض العرب الذين كانوا يراءونه ويصطنعون له الإخلاص، وأظهر خلاء الأسواق من الأقوات ما أصاب التجارة

مــن الضرر الفادح والبوار، وأصبح ثمن الخبز فوق متناول الخيال، وعــاد الناس – وقد ملكهم اليــأس – لا يفكرون إلا فى يومهم، أما الفقهاء والمتزمتون فقد عدوا ذلك من سخط السماء، وأن ابن حفصون لم يكــن إلا آلة لنقمــة الله وغضبه، ثم أخذوا ينشــرون بين الناس تكهنات مفجعة محزنة، وكم صاحوا يقولون:

«ويل لك يا قرطبة ... ويل لك يا بؤرة الفســاد ونذير الزوال ... يا موطن الفجائع والاضمحلال، لقد أصبحت بلا صديق أو حليف، ستحل مصيبتــك حينما يصل إلى أبوابك القائد الكبير الأنف، الدميم الوجه، الذى يحرسه المســلمون من أمامه والكافرون من خلفه، فإن فى وصول ابن حفصون إلى أسوارك القضاء المبرم والفناء المحتوم!!».

وحينمــا ازدادت الأمور حلكة وظلامًا، ســطع شــعاع من الأمل لليائسين من ســكان قرطبة، فإن الأمير عبد الله الذى تملكه اليأس كما تملك رعيته حاول أول مرة أن يعزم على عمل سياسى جرىء، وأن يخرج من المأزق الذى وضع فيه نفســه، فنهض بما عزم[1] على الرغــم من تثبيط أتباعه له وكثرة عدد الأعداء المحيطين به من كل جانــب، ولكنه بعد قليل عمل خيرًا من كل هذا، عمل ما كان يجب أن يعملــه لأمته من زمن بعيد ... ذلك أنه مات فى الخامس عشــر من أكتوبر سنة ٩١٢ م / ٣٠٠ هـ بعد أن بلغ الثامنة والستين، وبعد

(١) حارب ابن حفصون فى سنة ٨٩١ م / ٢٧٨ هـ بالقرب من قرطبة وانتصر عليه.

أن قضى فى الحكم أربعة وعشرين عامًا كلها حزن وشقاء، فقد رأى بعينيه من تدهور سلطان الأمويين - وكان تدهورًا سريعًا مفاجئًا - ما يصعب علاجه على المصلحين، ولكن الله قدر لحكم خليفته أن يرى أيضًا لهذا السلطان بعثًا سريعًا مفاجئًا، كاملًا شاملًا.

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر حفيدًا لعبد الله، وقد ولى الحكم فى الحادية والعشرين من عمره، وكان يظن أن يزاحمه عمه وأقاربه على الإمارة وهو فى هذه السن وفى هذا الوقت العصيب، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن، واستقبلت الأمة ولايته بصيحات الاستبشار والرضا من كل ناحية.

وكان الخليفة الجديد محبوبًا من الشعب ورجال القصر، تضافرت وسامة طلعته، وحسن سمته، وكرم أخلاقه، وقوة إدراكه، على أن تجعل منه خليفة تعشقه الجماهير، وأحس القرطبيون - وهم البقية الباقية من رعيته - بتجدد الأمل فيهم وهم يرقبون بواكير أعماله.

ولم يحاول عبد الرحمن إخفاء مراميه ومآربه، فقد هجر سياسة جده إلى غير عودة، وكان تناوحها بين الضعف والقوة سببًا فى دمار البلاد، وأعلن مكانها فى صراحة أنه لن يسمح بأى عصيان فى أى جزء من أجزاء المملكة الأموية، ثم دعا الساخطين ورؤساء القبائل إلى الخضوع لسلطانه بعد أن أرسلها كلمة صريحة بأنه لن يترك جزءًا من مملكته يتحكم فيه العصاة، وكان فى برنامجه من الجرأة ما ينعش آمال أكثر المتفائلين، وإن خاف كثير منهم من أن هذا

البرنامج قد يؤلب العصاة فى جميع أنحاء المملكة، ويجمعهم عصبة واحدة لسحق هذا الأمير الشاب العنيد، ولكن عبد الرحمن كان يعرف أخلاق أهل مملكته، فلم يكن فى جرأته عابثًا أو متهورًا.

لقد مضى جيل منذ أن رفع ابن حفصون وأشياعه علم الثورة، واعتقد أكثر الناس أن فيما نالهم من أوزارها ما يكفى، وفوق الذى يكفى[1]، وبردت تلك النار التى كانت تتأجج فى قلوب الإسبان المتسلمين والمسيحيين وتدفعهم إلى الكفاح فى سبيل الاستقلال.وأمثال هذه البدوات لن تعيش إلا إذا بلغت غاية الفوز عند أول اشتعالها، لقد كان الزعماء الآن بين ملحود لا يعود، وشيخ لا يرجى، فهدأت الروح الثائرة فى نفوس أتباعهم، وأخذ الناس يسائلون أنفسهم عما حصلوا عليه من جراء ثوراتهم؟ إنهم لم يطهروا الأندلس من الكفار، ولكنهم على النقيض أسلموها إلى أكثر من الكفار شرًّا: إلى زعماء اللصوص والمجرمين المخاطرين. فقد منيت المملكة فى جميع جهاتها بعصابات من اللصوص أتلفت الزرع والكروم، وتركت الأراضى وراءها قفرًا يبابًا، وأحس الناس أن كل شىء كيفما كان خير من تحكم هذه العصابات، وأن الأمير لن ينقل الأمور إلى أسوأ مما هى عليه، لذلك اتجهوا إليه ينظرون إلى ما يستطيع عمله لإصلاح هذه الحال.

---

(١) مات فى ذلك الوقت سعيد بن جودى وكريب وابن حجاج.

وكان من أثر كل هذا أن الخليفة حينما هب يقود جيوشه لمحاربة الولايات الخارجة عليه، رأى أن أكثرها أقرب إلى الخضوع من العصيان، وزاد فى حماسة جنوده أن رأوا أميرهم الشاب الشجاع فى مقدمتهم، وهو شىء لم يعهدوه من عبد الله جده، فساروا وراءه معجبين مستميتين، وأخذت المدن بالأندلس تفتح للأمير أبوابها واحدة إثر واحدة، فسلمت الولايات التى فى جنوب قرطبة أولا، ثم ألقت إشبيلية بقيادها، وأجبر البربر فى الغرب على الطاعة، وأسرع أمير الجرف بإرسال الإتاوة، ثم تقدم الأمير لقتال النصارى بمقاطعة رّيه (ريو) حيث يسكن منذ ثلاثين عامًا رعايا ابن حفصون الشجعان فى معاقلهم الجبلية، وكان عبد الرحمن أعرف الناس بأن مثل هذه المعاقل لن ينال بظفر سريع، لذلك خطا خطوات متئدة حتى أخضعها لسلطانه، فسلم إليه معقل بعد معقل، بعد ما رأى أعداؤه ما بهرهم من عدله وشرفه، وأنه قد حافظ على معاهدته مع النصارى أكرم محافظة، وأنه أظهر غاية الحلم والصفح لكل من سلّموا إليه، ولكن ابن حفصون بقى فى معقله متحديًا مغالبًا كعادته، غير أنه كان قد شاخ فأدركته المنية، وأصبح استيلاء الخليفة على حصن«ببشتر» أمرًا هينًا موكولا إلى الزمان.

وحينما وقف الأمير على مشارف هذا الحصن المنيع بعد استيلائه عليه، ونظر من بعده الشاهق إلى القمم الشديدة الانحدار التى تحيط به، ثار وجدانه، وغمرته عواطفه، فسجد لله شكرًا على

هـذا الفتح المبين، وبقى مدة إقامتـه بالحصن صائمًا، وشمل أعداءه بالصفح والغفران.

ثم ألقت مرسـية بالقياد، وخضعـت للخليفة، أما طليطلة فبقيت علـى تحديها وعصيانها ورفضت فى كبريـاء وغرور ما عرضه عليها عبـد الرحمن من الهدنة، وانتظرت الحصار بصبر وجلد، ولم يخطر ببال أهل المدينة أنهم منوا بأمير يخالف طابعه من عرفوهم من القواد الضعفاء الذين طالما آبوا بالعار والخيبة أمام حصونها المنيعة.

هجـم الخليفة على طليطلة ووقف بجيشـه لحصارها، ثم أراد أن يفهـم مـن لم يكن يفهم أن هذا الحصـار لم يكن محض تهديد، فأمـر أن تبنى مدينة صغيرة فوق الجبل المقابل لها سماها: «الفتح» وربض ينتظر عواقب الحصار، فلما اشـتد الجوع بالسـكان سلمت المدينـة ودخلها عبد الرحمن فكانت آخـر مدينة دانت له بالطاعة فى المملكة التى ورثها من سميه عبد الرحمن الداخل، والتى بلغت الآن فى سنة ٩٣٠ م / ٣١٨ هـ غاية امتدادها. وقد اقتضته إعادة ما ضيعه أسـلافه من المملكة ثمانية عشر عامًا، غير أنه فاز بما أراده وأتمه، وعادت سـلطته قوية الدعائم بين العرب والبربر والإسبان والمسـلمين والمتسلمين، ومن هذا الحين أبى أن يخص أى حزب من رعيته بميزة أو يرفعه فوق غيره، وشدد الضغط على زعماء العرب، فابتهج الإسبان بإذلالهم، وأصبح الملك اليوم خالصًا للخليفة وحده، فحكم مستقل الرأى مستبدًا، وقابلت الأمة استبداده بسرور وغبطة

بعد عدة سـنوات قضتها فى الاضطراب والفوضى، وبعد أن استراح الناس من العصابات التى كانت تغير على زروعهم وكرومهم.

وإذا كان الخليفة مستبد السلطان، فإنه لم يتجاوز الحد فى استبداده الـذى أعاد الناس إلى حيـاة الأمن والثروة، وأطلـق عقالهم لينالوا من الغنى ورغد العيش ما يشتهون على النحو الذى يشتهون.